مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

الجدل في القرآن

الحجاج السلبي للقرآن في شأن مصدره

آن سيلفي بواليفو Anne-Sylvie Boisliveau

ترجمة: موقع تفسير





المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

نبذة تعريفية بالمؤلّفة:

آن سيلفي بواليفو (Boisliveau Sylvie-Anne): باحثة فرنسية، حصلت على الدكتوراه من جامعة إكس مرسيليا سنة ٢٠١٠م بأطروحة حول القرآن الكريم. تتركّز أبحاثها في الدراسات القرآنية.

من أهم أعمالها:

Le Coran par lui-même : Vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel,2014.

وهو جزء من أطروحتها للدكتوراه، بالإضافة إلى كتابتها جُمْلة من المقالات والبحوث المنشورة. وقد ترجمنا لسيلفي بعض المواد:

- (إعلان سلطة القرآن... في نصّ القرآن)، ترجمة: مصطفى أعسو.

- (مقاربة نصّ مؤسّس: "الصعوبات، الحلول، الحدود"، انطلاقًا من دراسة القرآن)، ترجمة: خليل محمود اليماني.

مقدمة:

ساد المنهج التاريخي النقدي بوصفه منهجًا مركزيًّا في دراسة القرآن في الدراسات الغربية منذ القرن التاسع عشر، وتركّز اهتمامه على تاريخ تشكُّل القرآن وعلاقته بالكتب المقدّسة السابقة، أكثر من اهتمامه بدراسة بنية النصّ القرآني في ذاتها. غير أنّه منذ ثمانينيات القرن الماضي، أخذ يبرز اتجاه آخر، هو الاتجاه التزامني الأدبي، الذي ينصرف إلى دراسة البنية الخاصة للنصّ القرآني، من حيث تركيبه وأسلوبه وموضوعاته، ويسعى إلى الكشف عن أنماط انتظامها وآليات اشتغالها.

وتُعَدّ دراسات الباحثة الفرنسية آن سيلفي بواليفو من أبرز الدراسات التي تندرج ضمن هذا الاتجاه؛ إِذْ أَوْلَتْ عناية خاصّة بمسألة المرجعية الذاتية للقرآن، أي الكيفية التي يبني بها القرآن مرجعيته بوصفه نصًّا مقدسًا ذا سُلْطة، من خلال المفاهيم التي يصف بها نفسه، وطريقة توظيفها في علاقته بالمفاهيم الكتابية اليهودية والمسيحية، فضلًا عن توظيف إستراتيجيات نصّية وحجاجية متعدّدة، منها الاستدلال بآيات الطبيعة، وقصص الأنبياء، وقصص العقاب، والدفاع عن صِدْق النبي.

وفي هذه الدراسة، تتناول بواليفو إحدى هذه الإستراتيجيات، وهي إستراتيجية الحِجَاج من خلال الدفاع عن الدور النبوي؛ إِذْ تحلّل الآيات القرآنية التي تدافع عن النبي ﷺ، وتنفي عنه اتهامات الشِّعْر والكهانة، مبينةً أن

وظيفتها لا تقتصر على عرض جوانب من حياة النبي ﷺ أو ما واجهه من اتهامات، بل تتجاوز ذلك إلى بناء حجاج يدافع عن المصدر الإلهي للوحي. فنفي الشِّعْر والكهانة -وفق هذه القراءة- ليس مجرّد نفي لصفتين عن النبي ﷺ، وإنما هو نفي لارتباط الوحي بمصدر شيطاني، وتأكيد لمصدره الإلهي، بوصفه صادرًا عن الإله نفسه الذي أنزل الكتب المقدّسة السابقة.

وترى بواليفو أنّ هذا الحجاج القرآني يتوجّه إلى تصوّرات وانتظارات ذات طابع يهودي ومسيحي، أو قريبة منهما، لكنها تتحفّظ، بحكم مقاربتها المنهجية، على تعيين المخاطبين التاريخيين بهذا الحجاج، مكتفيةً بتقرير أنه يواجه توقّعات يهودية ومسيحية، سواء أكان أصحابها من المخاطبين الأوائل بالقرآن، أم من متلقّيه الثانويّين، أم ممّن ينتمون إلى مرحلة لاحقة على تشكُّل النصّ في صورته المعتمدة.

وهذا التحفّظ في تعيين المخاطبين التاريخيين الذي يظهر لدى المؤلِّفة يَتّصل بالأساس بطبيعة المنهج التزامني الذي تتبنّاه في الاشتغال، والذي ينصرف إلى دراسة النصّ في بنيته الداخلية فحسب، وإن كان هذا التحفّظ لا يبدو منفصلًا كذلك عن المناخ البحثي العام الذي تشكَّل في الدراسات القرآنية الغربيّة بفعل الاتجاه التنقيحي، وما أثاره من شكوك جذرية في موثوقية السردية الإسلامية عن نشأة القرآن وسياقه التاريخي، وهو ما أسهم في تعزيز التردّد لدى الباحثين الغربيين في تعيين المخاطبين الأصليين بالخطاب القرآني. واللافت أن

أثر هذا التشكيك ما يزال حاضرًا في بعض الدراسات الغربية الحديثة، رغم ما تعرّضت له الفرضيات التنقيحية الجذرية نفسها من نقد داخل الدرس الغربي، ولا سيما في ضوء نتائج دراسة المخطوطات القرآنية والنقوش المبكّرة، التي أضعفت عددًا من التصوّرات التنقيحية عن تاريخ تشكُّل النصّ القرآني وعزّزت بقوّة موثوقية السردية الإسلامية عن تاريخ القرآن الكريم، وهو ما يفترض أن يدعو إلى إعادة النظر المنهجي في مدى وجاهة الاستمرار في تعليق الأحكام التاريخية على هذا النحو.

وتمثّل هذه الورقة نموذجًا للاشتغال التزامني التفصيلي على بنية النصّ القرآني، من خلال تناول أحد ملامح بنيته الحجاجية والآليات التي يبني بها سُلْطته النصّية. ومن هنا تأتي أهمية إتاحتها للقارئ العربي، لما تتيحه من متابعة دقيقة لبعض مسارات البحث الغربي المعاصر في القرآن، ومناهجه في تحليل النصّ واستكشاف بنيته الخاصة.

الدراسة(١)(٢)(٣)

١. تمهيد:

إلى أيّ حدٍّ يمكن أن نجد في القرآن قرائن على الاهتمامات الدينية السابقة على الإسلام؟ يثير هذا السؤال على الفور أسئلة أخرى، إذا أُخِذَ في الحسبان أن

---

(١) عنوان هذه المادة، هو: " Polemics in the Koran: The Koran's Negative Argumentation over its Own Origin"، وقد نُشرت في: مجلة (أرابيكا) (Arabica)، المجلد ٦٠، عام ٢٠١٣م، ص١٣١-١٤٥، دار بريل، ليدن. وترجمتنا عن نسخة ما قبل النشر (print-pre) التي أتاحتها المؤلِّفة، وقد طلبت المؤلِّفة فيها أن تكون الإحالة إلى النسخة المنشورة. (قسم الترجمات)

(٢) قُدِّم مضمون هذه المقالة في حلقة دراسية بالمعهد الفرنسي للشرق الأدنى (Institut Français du Proche-Orient) في دمشق في يوليو ٢٠٠٨م، ثم في صيغة منقّحة في الاجتماع السنوي للأكاديمية الأمريكية للدين (American Academy of Religion) في مونتريال في نوفمبر ٢٠٠٩م. وهي تعرض نتائج من بحث أوسع في المرجعية الذاتية (self-referentiality) في النصّ القرآني (رسالة دكتوراه نُوقشت سنة ٢٠١٠م في جامعة إكس مرسيليا، قدّمتها آن سيلفي بواليفو، ونُشر القسمان الأوّلان منها بعنوان: Le Coran par lui-même: Vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel, Leiden, Brill, 2014, 432 p. www.brill.com/le-coran-par-lui-meme. [نشرنا في موقع تفسير ترجمة عرضٍ لهذا الكتاب بعنوان: (القرآن من خلال القرآن؛ مصطلحات وحجج الخطاب القرآني حول القرآن)، ميشيل كويبرس، ترجمة: أمنية أبو بكر]. (قسم الترجمات)

(٣) أثبتنا الآيات من المصحف مباشرة، ولم نترجم ما ترجمته المؤلِّفة منها إلى الإنجليزية، إذْ ليست ترجمتها موضع نقاش، وحذفنا لذلك قائمة الآيات بالعربية التي ألحقتها بآخر المقالة. وأعدنا إلى الحرف العربي الألفاظ العربية التي كتبتها المؤلِّفة بالحروف اللاتينية، وأبقينا المراجع الأجنبية بخطّها اللاتيني كما وردت. وما يرد بين المعقوفين [...] إضافة للتوضيح. أما الحواشي المختومة بـ(قسم الترجمات) فهي تعريف بالأعلام وتعليقات من قسم الترجمات بموقع تفسير. (قسم الترجمات)

كلّ دراسة معاصرة للقرآن تقوم بالضرورة[١] على النصّ المعتمد (canonical text)، وهو ثمرة مسارٍ طويل اعترفت فيه الجماعة المسلمة بنصٍّ قياسي كتابًا مقدّسًا لها. وبصرف النظر عن مسألة التواريخ الدقيقة لهذا المسار، يصير السؤال: إلى أيّ حدٍّ يمثّل النصّ القرآني المعتمد النصَّ السابق على الاعتماد (pre-canonical text)[٢][٣]، أي قِطَع النصّ التي تلاها النبي محمد فعلًا ويُفترض أنه تلاها؟ ذلك أن القرآن في صورته الأصلية المفترضة –(القرآن قبل اعتماده)– يمكن تعريفه بأنه التلاوات (recitations) التي نطق بها محمد، أو على الأقلّ التلاوات التي نسبتها إليه الروايات الإسلامية، ونسبها إليه من بعدها كثير من الباحثين[٤]، مع بقاء مسألة مصدرها الأول –أهو إلهي أم لا– مسألةَ

(١) لا توجد إلى اليوم نشرة نقدية للقرآن تقوم على المخطوطات المختلفة المتاحة. ويمكن بداهةً أن تقوم الدراسات على مخطوطة، أو على إحدى القراءات التي نُقلت بالرواية. ويهدف مشروع كوربس كورانيكوم (Corpus Coranicum) الجاري في ألمانيا إلى إخراج نشرة نقدية تقوم على المخطوطات وعلى أوصاف القراءات المنقولة.

(٢) في مسألة القرآن السابق على الاعتماد، انظر مثلًا:

Angelika Neuwirth, “Vom Rezitationtext über die Liturgie zum Kanon : zu Entstehung und Wiederausflösung der Surenkomposition im Verlauf der Entwicklung eines islamischen Kultus,” in The Qur’an as Text, ed. Stefan Wild, Leiden, Brill, 1996, p. 69-105 ؛ و Claude Gilliot, “Le Coran, production littéraire de l’Antiquité tardive ou Mahomet interprète dans le “lectionnaire arabe” de La Mecque,” Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, 2011 (129), p. 31-56 .

(٣) هكذا في الأصل في عنوان مقالة نويفرت: «Rezitationtext» و«Wiederausflösung»، والصواب: Rezitationstext وWiederauflösung. (قسم الترجمات)

(٤) قدّم بعض الباحثين فرضياتٍ عن أصولٍ/ مصادرَ أخرى للقرآن، كأن يكون أصله كتابَ قراءاتٍ طقسية سريانيًّا (lectionary)، أو نصوصًا ذات صِلَة بالكتاب المقدّس، لكن هذا لا ينفي احتمال أن =

إيمانٍ أو عدم إيمان. ومع أنّ بعضهم احتجّ بأن النبي أو صحابته لم يكتفوا بالنطق بالنصّ، بل دوّنوه أيضًا في وقت مبكّر، فإنه يبقى من العسير الجواب عن سؤال: إلى أيّ حدٍّ يوجد هذا النصّ السابق على الاعتماد في النص الحالي[١]؟ غير أنه ربما أمكن أن نستفيد شيئًا من دراسة نصّية (textual study)[٢] للقرآن

=

يكون محمد قد نطق به أو كتبه في وقت لاحق. انظر: مقالة كلود جيليو المذكورة آنفًا، و" Une reconstruction critique du Coran ou comment en finir avec les merveilles de la lampe d'Aladin," in Results of Contemporary Research on the Qur'an: The Question of a Historio-critical Text, ed. Manfred Kropp, Beirut, Ergon Verlag, 2007, p. 33-137.

(١) جدير بالملاحظة أنّ هذه الصعوبة التي تذكرها المؤلِّفة ترتبط -من جهة- بطبيعة المنهج الأدبي التزامني الذي تتبناه، ومن جهة أخرى، بمناخ التشكيك التاريخي الذي أسهم الاتجاه التنقيحي في تشكيله، كما أشرنا. ومع أن المؤلِّفة تحاول التخفيف من هذه الصعوبة -كما سيأتي- بالاستدلال من الدراسة النصّية على احتمال سبق المقاطع الجدلية لمرحلة اعتماد النصّ، فإن البحث في تاريخ تدوين القرآن ومدى احتفاظ النصّ المعتمد بصورته المبكّرة لا يقتصر على الدراسة النصّية، بل يتطلب الإفادة من دراسات المخطوطات القرآنية، وتاريخ الشفاهة والكتابة، وممارسات التدوين والنقل النصّي في العصور القديمة المتأخّرة. ومن ثَمّ، فإن صعوبة الإجابة عن هذا السؤال في حدود المنهج الذي تعتمده المؤلِّفة لا تعني بالضرورة صعوبة الإجابة عنه في ضوء مجمل الأدلة التاريخية المتاحة؛ إذْ لا يصح تحويل حدود المقاربة المنهجية الخاصّة إلى حدود للمعرفة التاريخية بالمسألة نفسها. (قسم الترجمات)

(٢) تُظهر الاتجاهات الحديثة في الدراسات القرآنية تناميًا للدراسات الأدبية. وهذه الدراسات تتناول النصّ في شكله وشعريته وإيقاعه (مثلًا: Thomas Hoffmann, The Poetic Qur'an: Studies on Qur'anic Poeticity, Wiesbaden, Harrassowitz, 2007؛ Michael Sells, "A Literary Approach to the Hymnic Sūras of the Qur'an: Spirit, Gender, and Aural Intertextuality," in Literary Structures of Religious Meaning in the Qur'an, ed. Issa J. Boullata, London, Routledge, 2009, p. 3-25؛ Angelika Neuwirth, Studien zur Komposition der

=

(للقرآن المعتمد)، وعلى وجه أخصّ من الدراسة النصية للمقاطع الجدلية، وهي مقاطع يقوى احتمال أن تكون سابقة على الاعتماد.

=

Toshihiko Izutsu, God and Man in the Koran: Semantics of the Koranic Weltanschauung, Tokyo, Keio Institute for Cultural and Linguistic Studies, 1964. وفي العلاقات بين مفرداته (mekkanischen Suren, Berlin, De Gruyter, 1981).

[جدير بالنظر أن الكتاب تُرجم إلى العربية تحت عنوان: (الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم)، وقد ترجمه: هلال محمد الجهاد، وصدر عن المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧م. (قسم الترجمات)].

Daniel A. Madigan, The Qur'an's Self-image: Writing and Authority in Islam's Scripture, Princeton, Princeton UP, 2001)، وكذلك في حجاجه (Rosalind Ward Gwynne, Logic, Rhetoric and Legal Reasoning in the Qur'an: God's Arguments, London, Routledge Curzon, 2004؛ Dominique & Marie-Thérèse Urvoy, L'action psychologique dans le Coran, Paris, Cerf, 2007) وبنيته (Michel Cuypers, Le Festin: Une lecture de la sourate al-Ma'ida, Paris, Lethielleux, 2007

[جدير بالنظر أن الكتاب تُرجم إلى العربية تحت عنوان: (في نظم سورة المائدة: نظم آي القرآن في ضوء منهج التحليل البلاغي)، وقد ترجمه: عمرو عبد العاطي صالح، وصدر عن دار المشرق، بيروت، ٢٠١٦م. (قسم الترجمات)]؛ المؤلف نفسه، La Composition du Coran. Nazm al-Qur'ân, Paris, éd. Gabalda, 2012.

[جدير بالنظر أن الكتاب تُرجم إلى العربية تحت عنوان: (في نظم القرآن)، وقد ترجمه: عدنان المقراني وطارق منزو، وصدر عن دار المشرق، بيروت، ٢٠١٨م. (قسم الترجمات)].

Mustansir Mir, Coherence in the Qur'an: A Study of Islahi's Concept of Nazm in Tadabbur-i Koran, Indianapolis, American Trust Publications, 1986، أكثر مما تتناوله في تطوّره التاريخي. وقد شرع زميلنا في معهد الأبحاث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي (IREMAM)، مهدي عزيّز (Mehdi Azaiez)، منذ مدة قريبة في إعداد رسالة دكتوراه في المقاطع الجدلية في القرآن.

ففي النصّ القرآني مقاطع تحكي مجادلاتٍ بين نبيّ القرآن (محمد) ومخالفيه. وتُفهم هذه المقاطع الجدلية عادةً -في التفاسير التقليدية، وكذلك في مؤلَّفات (أسباب النزول)- على أنها تعكس مواجهةً حقيقية مع مشركي مكة، أو أحيانًا مع يهود المدينة. وقد يكون الأمر كذلك فعلًا. غير أني أقترح النظر إلى هذه المقاطع لا بوصفها نصوصًا سردية غايتها الإخبار عن جانب من حياة محمد، بل بوصفها حجاجًا يخدم حجاجًا أعمّ. فهذه المقاطع جديرة بأن تُحلَّل تحليلًا نصيًّا، أي بوصفها جزءًا من تطوّر الحجاج في النصّ المعتمد.

ومن ثَمّ فإنّ الأسئلة التي أقترح طرحها لا تنبني على كون هذه المقاطع قد تعكس حوارًا أصليًّا وقع فعلًا في حياة محمد، أي أسئلة من قَبِيل: «لماذا -لأي سبب تاريخي- اتّهم المعارضون محمدًا بكذا وكذا، أو ساقوا حُجّة كذا وكذا؟»، أو «لماذا -لأي سبب تاريخي- ردّ محمد على تلك الحُجّة؟». بل ينبغي أن تكون أسئلة التحليل النصّي، مثلًا: «لماذا -لأي غاية- يتحدّث النصّ عن مثل هذه المواجهات؟»، و«لماذا -لأي غاية- نجد في النصّ عرضًا لحُجّة كذا وكذا مما ساقه معارضو محمد؟»، و«لماذا -لأي غاية- "يختار" النصّ أنّ يُسمِع صوتَ هذه الحجج كلّها؟».

٢. وصف المقاطع الجدلية:

يُظهر تحليل الحُجَج التي تتبادلها الشخصيات في المقاطع الجدلية أن الاتهامات تدور على مصدر التلاوات القرآنية كما جاء بها محمد. فهي اتهاماتٌ بأنّ للتلاوات مصدرًا غير المصدر الإلهي، وبأنّ دور محمد غيرُ دور النبي الحقّ. فالمعارضون ينكرون ضمنًا أن يكون اللهُ مصدرَ تلاوات محمد، إِذْ يقولون صراحةً إن لها مصادر من نوع آخر.

٢.١. اتهام محمد:

والاتهامات نوعان. النوع الأول: أنّ مصدر التلاوات القرآنية خارقٌ للطبيعة غير إلهي: إلهامٌ شِعْري، أو إلهامٌ من الجِنّ أو الشياطين، أو سِحْر. ويصحب ذلك ادعاءاتٌ بأنّ محمدًا شاعرٌ، أو رجلٌ مسّه الجنّ، أو مجنون، أو كاهن، أو ساحر:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (...) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١][٢].

---

(١) [القلم: ٢، ٤]. انظر في آخر المقالة النصّ العربي للآيات المقتبسة. وقد أخذتُ الترجمة عن ترجمة عبد الله يوسف علي مع تعديلها: Abdullah Yusuf Ali, The Holy Qur'an, Ware, Wordsworth, 2000. و«مجنون» هي اللفظة المستعملة هنا لمن «مسّه الجن»، وقد تعني أيضًا «المختلّ عقله»؛ فيمكن أن يُفهم هذا الاتهام شتيمةً صريحة. والواقع أنّ الردود على هذا الاتهام تُبرز -على سبيل المقابلة- سلامة طبع محمد. وانظر أيضًا: [التكوير: ١٩-٢٢].

(٢) كما أشرنا قبل، فقد حذفنا قائمة الآيات بالعربية التي ألحقتها المؤلِّفة بآخر المقالة، لأنّنا أثبتنا الآيات في مواضعها من المتن من المصحف، ولم نترجم عن ترجمتها الإنجليزية. (قسم الترجمات)

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ...﴾[١]. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾[٢].

وكان يُعتقد في جزيرة العرب قبل الإسلام أنّ الشعراء والسَّحَرة والكهّان يُلهمهم الشياطين أو الجنّ. والنصّ القرآني نفسه ليس شديد الوضوح في ذلك، ولا في الفروق بين الأرواح الشريرة (demons)، والشيطان أو الشياطين (Satan(s))، والجن.

واتهامُ محمد بأنه قد يكون شاعرًا يقترن بفكرة أنّ التلاوات القرآنية قد تكون شِعْرًا، وهو ما ينفيه النصّ نفيًا شديدًا:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٣].

ويطعن النصّ أيضًا طعنًا شديدًا في فكرة أنّ التلاوات قد تكون ذات مصدر شيطاني.

وهذا نفيٌ للمصدر الشيطاني أو الجِنّي، وإن كان النصّ يعترف بأن تلاوة محمد وكلام السّاحر أو كهانة الكاهن يصدران عن مصدر خارق متشابه[٤].

---

(١) [المؤمنون: ٧٠].

(٢) [الدخان: ١٤].

(٣) [يس: ٦٩-٧٠].

(٤) يبدو أن مراد الكاتبة بالتشابه هنا ليس اتحاد المصدر المباشر للوحي القرآني وكلام الكهّان، وإنما اشتراكهما في الاتصال بعالم الغيب؛ ويؤيّد ذلك قولها بعد: «والفرق بينهما أنّ كلام الساحر أو كهانة =

والفرق بينهما أنّ كلام الساحر أو كهانة الكاهن قد بدّلته الشياطين بإفسادها، أما تلاوات محمد فلم يطرأ عليها ذلك -إلا ما صحّحه اللهُ مرة أخرى فيما يُعرف بقصة الآيات الشيطانية (satanic verses) [قصة الغرانيق][(١)(٢)].

=

الكاهن قد بدّلته الشياطين بإفسادها، أما تلاوات محمد فلم يطرأ عليها ذلك». فهي فيما يظهر تستحضر التصوّر المتعلّق باستراق الشياطين السّمع من السماء، وإلقاء ما تسترقه إلى الكهّان مشوبًا بالكَذِب، في مقابل سلامة الوحي القرآني من هذا التدخّل. غير أنّ التعبير عن ذلك بتشابه المصدر موهِم؛ إذْ قد يوحي بتماثل المصدرَيْن، مع أنّ القرآن يميز صراحة بين نزول الروح الأمين بالوحي كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣]، وتنزل الشياطين على الكهان كما في قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]. كما ينبغي التنبه إلى أن ما يُلقى إلى الكهان ليس بالضرورة كلّه خبرًا مسترَقًا من السماء، فضلًا عن أن يكون كلامًا إلهيًّا؛ فاستراق السمع يفسّر بعض ما ينقله الكهان، ولا يقتضي أن يكون جميع كلامهم راجعًا في أصله إلى ذلك. (قسم الترجمات)

(١) في هذه المسألة انظر: Gerald Hawting, “Eavesdropping on the heavenly assembly and the protection of the revelation from demonic corruption,” in Self-Referentiality in the Qur’an, ed. Stefan Wild, Wiesbaden, Harrassowitz, 2006, p. 25-37

(٢) قال ابن عطية معلقًا على قصة الغرانيق: «وهذا الحديث الذي فيه الغرانقة وقع في كتب التفسير ونحوها، ولم يُدخله البخاري ولا مسلم، ولا ذكره -في عِلْمي- مصنّف مشهور، بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن "الشيطان ألقى" ولا يعينون هذا السبب ولا غيره، ولا خلاف أنّ إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة بها وقعت الفتنة، ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء فالذي في التفاسير -وهو مشهور القول- أن النبي ﷺ تكلّم بتلك الألفاظ وأن الشيطان أوهمه ووسوس في قلبه حتى خرجتْ تلك الألفاظ على لسانه، ورووا أنه نزل إليه جبريل بعد ذلك فدارسه سورة النجم، فلما قالها رسول الله ﷺ قال له جبريل: لم آتك بهذا، فقال رسول الله ﷺ: (افتريتُ على الله وقلتُ ما لم يقل لي)، وجعل =

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[1].

وتراكمُ الهجمات على محمد يُبرز أن معارضيه أهانوه، ويُتيح للنصّ أن يدافع عنه دفاعًا قويًّا.

أما النوع الثاني من الاتهامات -وهو الأكثر ورودًا، إِذْ صُرّح به أكثر من ١٧ مرة- فهو الاتهام بالافتراء البشري، أيْ أنّ محمدًا نفسه، أو أناسًا آخرين، قد يكونون أنشؤوا التلاوات القرآنية وادّعوا أن الله قائلها. والافتراء أن تنسب إلى أحدٍ زورًا نَصًّا ليس من قوله؛ ويمكن تفصيل مسار فعل «الافتراء» في ثلاث خطوات: (١) أن تكون بشرًا، و(٢) أن تُنشئ شيئًا (نصًّا)، ثم (٣) أن تقول أو تُفْهِم بأنّ هذا المُنشأ/ النصّ من عند الله لا من عندك.

=

يتفجّع ويغتم؛ فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ﴾». المحرر الوجيز (٤/ ١٢٩). وهذه القصة رفضها كثيرٌ من العلماء وبيّنوا عدم ثبوتها وأن أسانيدها -كما ذكر ابنُ كثير- مرسَلة منقطعة، وكذلك رفضها كثيرٌ من المفسِّرين. ومَنْ أثبت لها أصلًا لتعدّد طرقها المرسلة -كابن حجر- منع حملها على ظاهرها، فقال: «تعيّن تأويل ما وقع فيها مما يستنكر... فإن ذلك لا يجوز حَمْله على ظاهره؛ لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمدًا ما ليس منه، وكذا سهوًا إذا كان مغايرًا لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته، وقد سلك العلماء في ذلك مسالك...». فتح الباري (٨/ ٤٣٩). (قسم الترجمات)

(١) [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

ويعبّر النصّ في جُمْلَته عن هذه الفكرة بالفعل «افترى» ومرادفيه «اختلق» و«تقوّل». ويُستعمل كذلك الفعل «كذّب»، أي: اتهم أحدًا بالكذب، أو كذب على أحد، أو ادّعى زورًا أن أحدًا قال كذا وكذا. ويُستعمل أيضًا الاسم «إفك»، أي: الكذب والزور والافتراء والتلبيس، و«اختلاق»، مصدر «اختلق»: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (...) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ (...)[1].

وتُفَصَّل فكرة الافتراء في النصّ كذلك بألفاظ تعبّر عن إحدى خطواته: فمن جهةِ ألفاظُ الإنشاء والكتابة، أو النّسخ وتدوين ما أملاه آخرون (الخطوة ٢):

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

ثم يُقال إن التلاوات ليست سوى ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3].

(١) [يونس: ٣٧-٣٨]. وانظر أيضًا: [هود: ١٣، ٣٥]، و[الفرقان: ٤]، و[الأنبياء: ٥]، و[السجدة: ٣]، و[سبأ: ٤٣]، و[ص: ٧]، و[الشورى: ٢٤]، و[الأحقاف: ٨، ١١]، و[الطور: ٣٣].

(٢) [النحل: ١٠٣]. وانظر أيضًا: [الفرقان: ٤-٥]، و[الدخان: ١٤].

(٣) انظر: [الفرقان: ٥].

ومن جهة أخرى، تُذكر الخطوات الأخرى من فعل الافتراء: أولًا: أن يكون [محمد] «مجرد» بشر[1]، وثانيًا: ألّا تأتي مع التلاوات آيةٌ خارقة أو تأييدٌ خارق (الخطوة ١). ومثال ذلك هذا المقطع من سورة الفرقان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ۝١٠﴾[2].

وهنا نجد نقضًا قويًّا لفكرة أن يكون محمد -أو غيره من البشر- قد ألّف التلاوات، وأن يكون ينسبها إلى الله زورًا. ونجد كذلك نفيًا قويًّا لفكرة أن يكون محمد قد تعلّم «أساطير الأوّلين»، أو نَسَخها، أو غيرها من النصوص، عن الأعاجم.

---

(١) انظر: [الأنعام: ٩١]، و[الأنبياء: ٣].

(٢) [الفرقان: ٤-١٠].

٢.٢. «صوت النص» يردّ:

ومما ينبغي التنبيه عليه أيضًا طريقةُ النصّ القرآني في الرّد على الادعاءات المتعلّقة بالمصادر التي زعمت أصواتٌ أخرى أنها مصادر القرآن، وفي رفضها ونقضها. فالنصّ يطعن في هذه الادعاءات بوسائل شتى:

– الحجاج المضادّ (counter-argumentation): نفي الادعاء وإثبات نقيضه[١].

– قبول الادعاءات ونقل الجدل إلى مسألة أخرى، كمسألة لغة التلاوات مثلًا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ (...)[٢].

– قلب المنطق رأسًا على عقب. فالنصّ مثلًا يؤكّد ادعاءات المعارضين بأن محمدًا مجرد بشر: (...) ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[٣]. لكن النصّ يحوّل ذلك بعدئذٍ إلى دليلٍ هو أقوى من ذلك على أن التلاوات إلهية. فتصير الحُجّة المنطقية: ليس محمد، بل الله، هو المسؤول عن إنزال التلاوات القرآنية، والآيات، والعقوبات؛ ومن ثَمّ لا يستطيع محمد وحده أن يُنزل آياتٍ أو ملائكةً «تُثبت» المصدر الإلهي للتلاوات. فنحن هنا أمام نفيٍ لمسؤولية محمد عن ماهية التلاوات، وعمّا يحدث، وغير ذلك. بل ثمة تصريحٌ

---

(١) من أمثلة كثيرة: [يونس: ٣٧]، و[هود: ١٧]، و[الأنبياء: ١٠]، و[الفرقان: ٦]، و[الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، و[الطور: ٢٩]، و[الحاقة: ٤٠-٤٣]. وانظر التفاصيل في: Boisliveau, Le Coran par lui-même, part II.C.2.2.

(٢) [فصلت: ٤٤].

(٣) [الأنعام: ٥٠]. وانظر أيضًا: [الإسراء: ٩٣]، و[فصلت: ٦].

قوي يتكرّر ثلاث مرات في شأن مسؤولية محمد: أنه لو كان مذنبًا بالافتراء لعاقبه الله عقابًا شديدًا: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾(١).

- النقض، وقلب الادعاء لاستعماله ضد المعارضين. فيُتّهم هؤلاء بما كانوا يتّهمون به، ولا سيما الاتهام بالتحريف والكذب على الله وعلى كتابه؛ ويقع ذلك ١٥ مرة على الأقل: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

- تحدّي المعارضين؛ إِذْ يُتَحَدَّون أن يأتوا بتلاوات مثل تلاوات محمد، ويُقرَّر أنهم لن يقدروا على ذلك: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾(٣).

---

(١) [الحاقة: ٤٤-٤٧]. وانظر أيضًا: [هود: ٣٥]، و[الأحقاف: ٨-٩].

(٢) [البقرة: ٧٥]. وانظر أيضًا: [البقرة: ٧٩]، و[آل عمران: ٢٨]، و[النساء: ٤٦]، و[المائدة: ٤١، ١٠٣]، و[الأنعام: ٢١، ٩٣]، و[الأعراف: ٣٦-٣٧، ٤٠]، و[هود: ١٨]، و[الفرقان: ٤]، و[العنكبوت: ٦٨].

[جدير بالنظر أن إحالة المؤلِّفة للآية (٢٨) من سورة آل عمران فيها إشكال، فالآية تتكلَّم على النهي عن موالاة الكافرين، ولعلّ المراد الآية (٧٥)، أو الآية (٧٨) وفي كلتيهما: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]]. (قسم الترجمات)

(٣) [البقرة: ٢٣-٢٤]. وانظر أيضًا: [يونس: ٣٨]، و[هود: ١٣-١٤]، و[الإسراء: ٨٨]، و[الطور: ٣٤].

- السخرية من موقف المعارضين: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ (...)[١].

- تهديدٌ موجّه إلى موقف المعارضين: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[٢].

- وتقريرٌ مستقلّ بأن المعارضين لن يؤمنوا على كلّ حال، أيًّا كانت الحجة، فلا جدوى من مخاطبتهم[٣].

وهذا النقض القوي لنوعي الاتهام كليهما -أي المصدر الشيطاني أو البشري- يعزّزه بوضوح التوازي اللافت بين الاتهامات الموجهة إلى محمد والاتهامات الموجهة إلى الأنبياء السابقين، ولا سيما موسى. وهذه أقوالٌ في عيسى وفي محمد على الترتيب:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾[٤].

---

(١) [ص: ٤]. وانظر أيضًا: [يونس: ٢].

(٢) [الدخان: ١٦]. وانظر أيضًا: [المدثر: ٢٦].

(٣) مثلًا: [البقرة: ٦-٧، ١٨]، و[المائدة: ١٠٤]، و[الأنعام: ٧، ٢٥، ١٢٤]، و[سبأ: ٤٣]، و[الطور: ٤٤-٤٥]. وانظر التفاصيل في: Boisliveau, Le Coran par lui-même, part II.C.2.2.

(٤) [الصف: ٦]. [ذكر ابن عطية أن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يريد عِيسَى عليه السلام، وتكون الآية وما بعدها تمثيلًا بأولئك لهؤلاء المعاصرين لمحمد ﷺ. الثاني: أن =

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾[1].

والنصّ نفسه يُبرز هذا التوازي[2]. فمحمد مضطرٌّ إلى مواجهة النوع نفسه تمامًا من الاعتراض الذي واجهه الأنبياء السابقون، إلا ما كان من أمر الشِّعْر.

=

يكون التمثيل قد فرغ عند قوله: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾، ثم خرج إلى ذكر أَحْمَد لمّا تطرق ذكْره، فقال مخاطبة للمؤمنين: فَلَمَّا جاء أحمد هؤلاء الكفار قالُوا: هذا سحر مبين. المحرر الوجيز، ابن عطية، (٥/ ٣٠٣). وذكر ابن عاشور أن المتبادر عود الضمير إلى عيسى عليه السلام، ثم قال: «ويحتمل أن يكون ضمير الرفع عائدًا إلى رسول يأتي من بعدي. وضمير النصب عائدًا إلى لفظ بني إسرائيل، أي بني إسرائيل غير الذين دعاهم عيسى عليه السلام من باب: عندي درهم ونصفه، أي نصف ما يسمى بدرهم، أي فلما جاءهم الرسول الذي دعاه عيسى باسم أحمد بالبينات، أي دلائل انطباق الصفات الموعود بها قالوا هذا سحر أو هذا ساحر مبين، فيكون هذا التركيب مبين من قبيل الكلام الموجه. وحصل أذاهم بهذا القول لكلا الرسولين. فالجملة على هذا الاحتمال تحمل على أنها اعتراض بين المتعاطفات وممهدة للتخلّص إلى مذمة المشركين وغيرهم ممن لم يقبل دعوة محمد ﷺ». التحرير والتنوير، (٢٨/ ١٨٦-١٨٧)]. (قسم الترجمات)

(١) [الأحقاف: ٧].

(٢) انظر: [سبأ: ٤٣-٤٥].

٣. تحليل أوسع:

٣.١. يقدّم هذا الخطاب لسامعي هذه «المقاطع الجدلية» أو قرّائها تأكيدًا قويًّا للمصدر الإلهي للقرآن -الذي يُعَرَّف في مرحلة ما قبل الاعتماد بأنه «تلاوات محمد»-، ودفاعًا قويًّا عن شخص محمد ونبوّته. وهذه التقريرات يُقصد بها الاستجابة لتوقعاتٍ دينية تقوم على المقابلة بين المقدّس والدنيوي (the sacred and the profane)، أي بين ما هو من عند الله وما هو من عند الشياطين أو البشر؛ ومن ثَمّ فهذه التوقّعات مرتبطة بالتصوّرات اليهودية والمسيحية للوحي. والنصّ يؤكّد هذا الانتماء، إِذْ يقتضي كلامه أنّ التلاوات القرآنية تلبّي هذه التوقعات فعلًا. وبعبارة أخرى، يُوصَف القرآن بأنه كتابٌ مقدّس موحًى به على النمط اليهودي أو المسيحي.

وقد بيّنتُ في دراسة سابقة أنّ لفظ «كتاب» -بمعنى الكتاب أو الكتاب المقدّس-، مقرونًا بما يحيط به من مفردات وحجاج، يُستعمل بوضوح في أكثر مواضعه لوصف «كتاب مقدّس على النمط اليهودي أو المسيحي»، أي موحًى به من الله بواسطة نبي[١]. والنقطة الدقيقة هنا أنّ في القرآن تعريفًا مستقلًّا لما يكوّن «نمط الوحي اليهودي أو المسيحي». فالقرآن يعيد تعريف ماهيّة الكتاب المقدّس اليهودي المسيحي[٢]، مستعملًا مفهومًا قريبًا من المفاهيم اليهودية

---

(١) انظر: Boisliveau, Le Coran par lui-même, esp. part I.A.1.3. & II.B.3.1.

(٢) لا أستعمل لفظ «يهودي مسيحي» هنا بمعنى أيديولوجي، بل أستعمله بمعنى «يهودي و/ أو مسيحي و/ أو متصل بالفرق المسيحية اليهودية»؛ لأنّ النصّ القرآني ينقل هذه الفكرة: ففي شأن الوحي =

والمسيحية الرئيسة لكنه مختلف عنها، ثم يتماهى معه[١]. أما إلى أيّ حدٍّ كانت هذه المفاهيم مطابقةً فعلًا للمعايير الدينية اليهودية والمسيحية في ذلك الزمن، فمسألةٌ يمكن أن يتواصل النقاش فيها. وهنا في المقاطع الجدلية لا تُوصَف التوقّعات صراحةً بأنها يهودية أو مسيحية، لكنها قريبة منهما.

وما أودّ أن أؤكّده هنا أن النصّ في الوقت نفسه يحاجّ بقوّة في دفع الاتهامات التي تصحب هذه التوقّعات. ففي الأمر حركة مزدوجة: بيانُ أن التلاوات الجديدة تلبّي التوقعات الدينية، ونقضُ الاتهامات بأنها لا تلبّيها. وبعبارة أخرى، نحن هنا أمام تقرير عقيدة دينية «جديدة»: مفادها أنّ التلاوات المحمدية كتابٌ مقدّس في إطار منطق العقائد اليهودية المسيحية. فتأكيد المصدر الإلهي والدفاع عن محمد كلاهما يفضي إلى وصف تلاواته بأنها كتاب مقدّس.

ويمكن أن يلاحظ أيضًا أنّ النصّ أخذ يُطلق على تلاوات محمد اسم «القرآن»، أي إنها أخذت تُتصوَّر بوصفها كُلًّا واحدًا. وهذا «الكلّ» يُوصَف بصورة حاسمة بأنه كتاب مقدّس من «النمط الموحى به».

=

والكتب المقدّسة يَعُدّ النمطَيْن اليهودي والمسيحي مترابطين. فأنا لا أستعمله إلا للتعبير عن منظور القرآن.

(١) انظر: Boisliveau, Le Coran par lui-même, esp. part II.B.1.

ووجود هذه التوقعات في النصّ يكشف عن مشكلةٍ في قبول هذه التقاليد الدينية الأقدم لكتاب مقدّس جديد، هو القرآن هنا. فـ«المقاطع الجدلية» ليست «جدلية» بسبب أصلها الذي يُرجَّح أنه حوار جدلي ربما دار بين محمد ومعارضيه فحسب، بل هي «جدلية» بمعنى أنها حجاجية بقوّة في الانتصار للسلطة الدينية لتلاوات محمد القرآنية. وليس ذلك في مرحلةٍ افتراضية سابقة على الاعتماد فحسب، بل في كلّ وقت يقرأ فيه قارئٌ النصّ. ففي زمن تأليفه، وفي زمن قراءته أو تلاوته، يُظهر النصّ بوضوح أنّ السلطة الدينية لتلاوات محمد ينبغي أن تُبنى في مواجهة عداء هذه التقاليد السابقة، وفي الوقت نفسه مستعينةً بالمشروعية التي تمنحها هي للكتب المقدّسة.

٣.٢. من الواضح أن «مؤلِّف»[١][٢] النصّ القرآني كان يرى من المهم جدًّا أن يحتاط في الطريقة التي قد يتصوّر بها السامعون أو القرّاء مصادر التلاوات القرآنية، وأن يقدّم الحُجَج في دفع كلّ اتهام. فهذه المقاطع تقدّم إذن المعرفة الدينية اللازمة للطعن في أي اتهام من هذا القبيل.

ويبدو أنّ أوجه التوازي بين الاتهامات الموجّهة إلى محمد والموجّهة إلى الأنبياء السابقين تدلّ على أنّ الاتهامات ليست وحدها المتماثلة، بل

(١) يُستعمل لفظ «المؤلِّف» هنا بصرف النظر عن مسألة هويته؛ لأن هذه المسألة تتعلّق بالإيمان الشخصي.

(٢) القرآن عند المسلمين كلام الله ﷻ، أنزله على نبيه محمد ﷺ، فليس له مؤلِّف من البشر. وقد نبّهت الكاتبة في حاشيتها على أنها تستعمل اللفظ من غير أن تحكم في هذه المسألة. (قسم الترجمات)

المعارضون أيضًا. بل إنهم يبدون في بعض المقاطع خالدين. ولا يُقصد ذلك فعلًا بطبيعة الحال، إِذْ كان اللهُ قد عاقبهم؛ فما يشنّع عليه النصّ هنا ليس هؤلاء المعارضين التاريخيين في لحظةٍ من الزمن بقدر ما هو موقفهم. فالنصّ يهاجم هنا موقف التكذيب نفسه الموجّه إلى التلاوات. و«مؤلِّف» النصّ معنيٌّ بمنع أي موقف سلبي جديد من تقريراته الدينية.

٣.٣. ولننبّه هنا على أنّ إسقاط اعتبار موقف المعارضين في المقاطع الجدلية يجري في الغالب بقلب الاتهام وردّه على المعارضين. فالنصّ يتّهم المعارضين بالافتراء. وربما أفضى هذا إلى فكرة التحريف، أي الفكرة القرآنية بأنّ أفرادًا من الجماعتين اليهودية والمسيحية حرّفوا كتبهما المقدّسة. ومن هذه الجهة لا تبدو فكرة التحريف إحدى الأفكار الرئيسة في تعاليم القرآن عن الأديان السابقة بقدر ما تبدو مجرّد جزء من الحجاج الكلي في شأن مصدر القرآن. فهي نتيجة لخطاب القرآن في الدفاع عن نفسه في مواجهة المعارضين، لا نظرية أساسية.

ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن وصف التوراة والإنجيل آخِرَ الأمر بأنهما شبيهان بالقرآن، وهي فكرة لا تأتي -في رأيي[١]- إلا نتيجةً لتعريف القرآن نفسه، ومن ثَمّ لتقديمه تعريفًا عامًّا جديدًا لما يكون به الكتاب كتابًا مقدّسًا، ينطبق بأثر رجعي على التوراة والإنجيل.

(١) انظر: Boisliveau, Le Coran par lui-même, esp. part II.B.3.1.

٤. الخلفية الدينية:

ما الذي يمكن أن نعرفه عن الخلفية الدينية السابقة على الإسلام من هذه الدراسة؟ ومَن كان يحمل مثل هذه التوقعات الدينية؟ لنحاول الجواب عن هذين السؤالين بالنظر الآن في مرحلتي ما قبل الاعتماد والاعتماد كلتيهما.

والمقاطع الجدلية يُراد بها مخاطبة جمهورٍ في الفترة التكوينية للقرآن. وينبغي التمييز هنا بين جمهورين من المخاطَبين. فـ«المخاطَبون الأوائل»، الذين يُرجَّح وجودهم، هم السامعون والمعارضون الذين ربما دارت بينهم وبين محمد نقاشات في مرحلة مبكّرة؛ غير أنه ليس من المؤكّد أن هؤلاء «المخاطَبين الأوائل» وُجدوا تاريخيًّا فعلًا. ولذلك أقترح التركيز على «المخاطَبين في المرحلة الثانية»، أي السامعين الذين استمعوا فعلًا إلى محمد يتلو تلاواته القرآنية في مرحلة لاحقة. وبعبارة أخرى، ربما شارك «المخاطَبون الأوائل» على نحوٍ ما في التكوين النصّي لـ«المقاطع الجدلية»، أما «المخاطَبون في المرحلة الثانية» فقد استمعوا إلى هذه «المقاطع الجدلية» وقد صارت فعلًا جزءًا من تلاوات محمد القرآنية. فهؤلاء «المخاطَبون في المرحلة الثانية» هم الذين وُجّهت إليهم المقاطع الجدلية.

وثمة احتمال آخر أيضًا، هو أن يكون النصّ موجّهًا إلى مخاطَبين في مرحلة ثالثة، بعد وفاة محمد، إن كانت الجماعة قد نقّحت النص في أثناء مسار الاعتماد. بل قد يخاطب النصّ كلّ سامع أو قارئ لاحق في المستقبل؛ وذلك كله سيتوقف حينئذٍ على غايات «المؤلِّف» في زمنه.

وفي شأن «المخاطَبين في المرحلة الثانية» ينشأ احتمالان. الأول أن تكون المقاطع الجدلية قد وردت في القرآن لتلبّي توقعات هؤلاء المخاطَبين؛ فتكون لهم توقعات دينية. وهذا الموقف يشير إليه ألفريد لويس دي بريمار (Alfred-Louis de Prémare)[١] في كتابه الوجيز الملهِم عن أصول القرآن[٢]، وإن كان لا يميّز بين مخاطَبين أوائل ومخاطَبين في مرحلة ثانية[٣]. فهذه المقاطع الجدلية تعكس عنده

---

(١) ألفريد لويس دي بريمار (Alfred-Louis de Prémare) (١٩٣٠-٢٠٠٦م): مستشرق فرنسي، حصل على الماجستير في اللغة العربية وآدابها من جامعة القاهرة، وعلى دكتوراه الدولة من جامعة باريس الثالثة سنة ١٩٨٤م، ودرّس في قسنطينة والرباط، ثم صار أستاذًا في جامعة بروفانس (إكس مرسيليا الأولى)، وباحثًا في معهد الأبحاث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي (IREMAM). من أهم أعماله: كتاب Joseph et Muhammad. Le chapitre 12 du Coran 1989؛ وكتاب Les Fondations de l'islam. Entre écriture et histoire (2002)، وقد تُرجم إلى العربية بعنوان: (تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ)، ترجمة: عيسى محاسبي، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٩م؛ وكتاب Aux origines du Coran (٢٠٠٤م)، وقد تُرجم إلى العربية بعنوان: (في أصول القرآن: مسائل الأمس ومقاربات اليوم)، ترجمة: ناصر بن رجب، منشورات الجمل، بيروت/ بغداد، ٢٠١٩م. (قسم الترجمات)

(٢) Alfred-Louis de Prémare, Aux origines du Coran: questions d'hier, approches d'aujourd'hui, Paris, Téraèdre, 2004. [جدير بالنظر أن الكتاب تُرجم إلى العربية تحت عنوان: (في أصول القرآن: مسائل الأمس ومقاربات اليوم)، وقد ترجمه: ناصر بن رجب، وصدر عن منشورات الجمل، بيروت/ بغداد، ٢٠١٩م. (قسم الترجمات)].

(٣) يعود غياب هذا التمييز عند بريمار لكونه ينظر إلى تاريخ تشكل القرآن باعتباره استمر لما بعد منتصف القرن السابع، وبالتالي كانت هذه الآيات إضافات لاحقة للأقوال النبوية، نشأت في سياق جدالي =

نقاشًا في شأن القرآن دار في الفترة التكوينية للإسلام، في وقتٍ ما بعد عصر محمد، أي إنها ضربٌ من الأحاديث صُنع بعد وقوع الحدث (post eventum) للدفاع عن القرآن في مواجهة تصوّراتٍ أخرى منافسةٍ عن الكتب المقدّسة في وسط يهودي ومسيحي، في الأقاليم التي فتحتها الدولة الإسلامية[1].

غير أنه قد يكون ثمة احتمال ثانٍ أيضًا، هو أن «المخاطَبين في المرحلة الثانية» لم تكن لهم توقعات دينية، أو تكاد لا تكون لهم، وأن المقاطع الجدلية جاءت لتعلّمهم ما التوقعات الدينية التي ينبغي أن تكون للمرء من الآن فصاعدًا، ولتعلّمهم كيف يلبّي القرآن هذه التوقّعات تحديدًا. فأيّ الاحتمالين أرجح؟ أي: هل كانت لـ«المخاطَبين في المرحلة الثانية» توقّعات دينية أم لا؟ يصعب القول. والأرجح أنّ «المخاطَبين في المرحلة الثانية» كانوا أناسًا من خلفيات دينية مختلفة، وأن تكون غاية النصّ الأمرين معًا: تقديم عقائد دينية لجمهور وثني، والدفاع عن مكانته أمام جمهور يهودي و/ أو مسيحي.

ولسنا معنيّين في إطار هذه المقالة بتحديد الجماعة الدقيقة من المسيحيين واليهود أو المسيحيين اليهود الذين ربما كانوا المخاطَبين الأوائل أو في المرحلة

=

طائفي. ومثل هذه التصوّرات مشكلة جدًّا وتختلف مع نظرة المسلمين العقدية للقرآن الكريم، وقد نقضت الأدلة المادية كالمخطوطات القرآنية المبكرة هذه التصورات وبينت غلطها.(قسم الترجمات)

(1) De Prémare, Aux origines du Coran, p. 120, 124-125, 132-133.

الثانية أو حتى الثالثة[١]. ومع ذلك فالمؤكَّد أنّ الأفكار القرآنية بُنيت لتستجيب لأفكار دينية من جماعات مرتبطة باتجاهات من اليهودية و/ أو المسيحية، أو لتستعملها، لا لتستجيب لأفكار آتية من جماعات وثنية ولا لتستعملها.

(١) انظر مثلًا المقالة الجديرة بالاهتمام: C. Jonn Block, "Philoponian Monophysitism in South Arabia at the Advent of Islam with Implications for the English Translation of 'Thalātha' in Qurʾān 4. 171 and 5. 73", Journal of Islamic Studies, 23:1 (2012), p. 50-75.

٥. خاتمة:

تُظهر الدراسة النصّية للمقاطع «الجدلية» في القرآن أنها حجاجٌ قويّ: تقرير أنّ التلاوات القرآنية إلهية المصدر -وأن محمدًا نبيٌّ حقّ- بتلبية توقعات «يهودية مسيحية على نحوٍ ما»، وبتقديم أجوبة عن الاتهامات التي تصحب هذه التوقعات. بل يزداد هذا الحِجَاج تعزّزًا برفض كلّ موقف تكذيب. وهذا الحِجَاج أيضًا، بدفاعه القوي في مواجهة المعارضين، وَلّد اتهامَ الافتراء مقلوبًا موجّهًا إليهم، فأفضى إلى فكرة التحريف، التي ينبغي إذن ألّا تُفهم إلا في إطار هذا الحِجَاج في شأن مصدر القرآن. فالتوقّعات الدينية حاضرة بوضوح في هذا الشأن، لكن يصعب تحديد أكانت توقعات «المخاطَبين في المرحلة الثانية» الذين استمعوا إلى هذه المقاطع الجدلية، أم كان النصّ يعلّمها بوصفها التوقّعات التي ينبغي أن تكون للمرء من الآن فصاعدًا.

ويمكن تأكيد مسألة أخرى: أنّ المقاطع الجدلية، التي تقدّم تعليمًا عن طبيعة القرآن -القرآن كتاب مقدّس-، جزءٌ من حجاج أوسع بكثير في النصّ القرآني، يشمل كلّ «قصص السابقين» (عن الأنبياء السابقين)، وكلّ «قصص العذاب»، بل يشمل أكثر من ذلك كلّ المقاطع ذات المرجعية الذاتية[١]، أي حديث النصّ القرآني عن مكانته الحُجّية. وبالنظر إلى قوّة المرجعية الذاتية،

(١) انظر: Boisliveau, Le Coran par lui-même, part II.

يمكن أن يُسأل: أأهمّ عنصر في كتاب الإسلام المقدّس رسالةُ الله نفسها، أم مكانة رسالة الله وسُلطتها؟ أما في المقاطع الجدلية على الأقل، فأهمّ ما فيها مكانة رسالة الله وسُلطتها.

قائمة المراجع:

- Ali, Abdullah Yusuf, The Holy Qur'an, Ware, Wordsworth, 2000.
- Block, C. Jonn, "Philoponian Monophysitism in South Arabia at the Advent of Islam with Implications for the English Translation of 'Thalātha' in Qurʾān 4. 171 and 5. 73", Journal of Islamic Studies, 23:1 (2012), p. 50-75.
- Boisliveau, Anne-Sylvie, Le Coran par lui-même: Vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel, Leiden, Brill, 2014.
- Cuypers, Michel, Le Festin: Une lecture de la sourate al-Ma'ida, Paris, Lethielleux, 2007.
- Cuypers, Michel, La Composition du Coran. Nazm al-Qur'ân, Paris, éd. Gabalda, 2012.
- Gilliot, Claude, "Une reconstruction critique du Coran ou comment en finir avec les merveilles de la lampe d'Aladin," in Results of Contemporary Research on the Qur'an: The Question of a Historio-critical Text, ed. Manfred Kropp, Beirut, Ergon Verlag, 2007, p. 33-137.
- Gilliot, Claude, "Le Coran, production littéraire de l'Antiquité tardive ou Mahomet interprète dans le "lectionnaire arabe" de La Mecque," Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, 2011 (129), p. 31-56.
- Gwynne, Rosalind Ward, Logic, Rhetoric and Legal Reasoning in the Qur'an: God's Arguments, London, Routledge Curzon, 2004.
- Hawting, Gerald, "Eavesdropping on the heavenly assembly and the protection of the revelation from demonic corruption," in Self-Referentiality in the Qur'an, ed. Stefan Wild, Wiesbaden, Harrassowitz, 2006, p. 25-37.

- Hoffmann, Thomas, The Poetic Qur'an: Studies on Qur'anic Poeticity, Wiesbaden, Harrassowitz, 2007.
- Izutsu, Toshihiko, God and Man in the Koran: Semantics of the Koranic Weltanschauung, Tokyo, Keio Institute for Cultural and Linguistic Studies, 1964.
- Madigan, Daniel A., The Qur'an's Self-image: Writing and Authority in Islam's Scripture, Princeton, Princeton UP, 2001.
- Mir, Mustansir, Coherence in the Qur'an: A Study of Islahi's Concept of Nazm in Tadabbur-i Koran, Indianapolis, American Trust Publications, 1986.
- Neuwirth, Angelika, Studien zur Komposition der mekkanischen Suren, Berlin, De Gruyter,

فهرس الموضوعات

نبذة تعريفية بالمؤلّفة ٢
مقدمة ٣
الدراسة ٦
١. تمهيد ٦
٢. وصف المقاطع الجدلية ١١
٢.١. اتهام محمد ١١
٢.٢. «صوت النص» يردّ ١٧
٣. تحليل أوسع ٢١
٤. الخلفية الدينية ٢٥
٥. خاتمة ٢٩
قائمة المراجع ٣١
فهرس الموضوعات ٣٣